(ظهور بيداغوجيا المقاربة بالكفاءات)
- الاسباب والدواعي -

مقدمـة.

نشهد في هذا العصر ، كما في غيره من العصور التي سبقته حشدا من المفاهيم الفكرية التي تشغل الفكر الإنساني.و من أهم هذه المفاهيم في عالم التربية، مفهوم كلمة " كفـاءة "

و لما كانت الأشياء تعرف بالرجوع إلى أصولها ، فإن البحث الأمين يدفعنا إلى تفقد المعاجم المعتمدة، للوقوف على دلالة كلمة " كفاءة " من الناحية اللغوية أولا ، ثم من حيث هي مصطلح تربوي ثانيا. و يقع اختيارنا على" المعجم الوسيط " الصادر عن مجمع اللغة العربية بالقاهرة و ذلك باعتباره معجما يجمع بين القد يم و الحديث ؛ فقد ورد في هذا المعجم أن " كفاه الشيء ، يكفي كفاية : استغنى به عن غيره ، فهو كاف وكفيٌ."

والكفاءة : الُمَماثلة في القوة و الشرف و منه الكفاءة في الزواج : أن يكون الرجل مساويا للمرأة في حسبها ودينها وغير ذلك.

والكفاءة للعمل : القدرة عليه و حسن تصريفه و هي كلمة مولدة. ولفظة " كفاءة " تقابلها في اللغة الفرنسية كلمة Compétence و في شرح هذه الكلمة يخبرنا معجم " روبير الكبير le Grand Robert بأن لفظة Compétence ذات اصل لاتيني compétentia و تعني العلاقة . و قد ظهرت في القرن الخامس عشر – 1468 م– في اللغات الأوروبية بمعان مختلفة.

– هذا عن المدلول اللغوي للفظة الكفاءة.أما عن مد لولها في سياق بيداغوجي ، فنتناوله فيما يأتي:

1) الأساس الحضاري في ظهور بيداغوجية الكفاءات :

إن العالم اليوم أ خذ يخطو خطوات عملاقة في مجال العلوم و التكنولوجيا ؛ و في خضم هذا العالم، أخذت الوضعيات تتعقد بحيث أصبح مستعصيا على الإنسـان إيجاد حلول لهذه الوضعيـات ، بمنطق وحدانية المـادة ؛ الأمر الذي يدعو بالضـرورة إلى تعدد حقل المعرفة الإنسـانية و تنوعها استعدادا للتفاعل بصورة إيجابية مع مختلف الوضعيات التي تصادفه في حياته.

والجدير بالملاحظة ، هو أنه ثمة هوة أخذت تبعد المدرسة عن الوضعيات التي من واجبها أن تعمل على إعداد التلاميذ لها، حيث إن التلاميذ مازالوا يتلقون المعارف منفصلة ؛ الأمر الذي يجعل هؤلاء التلاميذ- مستقبلا - يعالجون وضعياتهم بشكل ضيق ، منغلق.

و قد أبرزت دراسات قام بها مربون مختصون ، بأن ثمة تلاميذ اكتسبوا معارف في المدرسة الابتدائية و لكنهم ظلوا عاجزين عن تفعيل هذه المعارف في مختلف مواقف الحياة التي تصاد فهم يوميا. مثال ذلك:

-يتمكن هؤلاء التلاميذ من قراءة نص، غير أنهم يعجزون عن إدراك معانيه البعيدة و توظيفها في حياتهم.

- يستطيعون إجراء عمليات الجمع ، لكنهم عندما يكونون أمام وضعية من وضعيات الحياة المعيشة يعجزون عن معرفة العملية المناسبة لهذه الوضعية .

- يحفظون نظريات رياضية عن ظهر قلب، لكنهم يعجزون عن استعمالها في حل المسائل المناسبة لها.

و من هنا ، وجب النداء إلى إدخال بيداغوجية الكفاءات في المدارس، و ذلك استجابة للوضعيات المستجدة التي أصبح العالم ، اليوم ، يعيشها.

2)الأساس الإقتصادي في ظهور بيداغوجية الكفاءات :

إن أرباب الشركات الذين يتعلقون - دوما - بالفاعلية و كثرة الإنتاج ، لاحظوا أن الطلبة المتخرجين من المدارس العليا يعجزون في معظم الأحيان عن أداء المهام المعقدة التي تسند إليهم مع توافرهم على جميع المعلومات و التقنيات المطلوبة ؛ مثل هذه الوضعية و غيرها ، بالإضافة إلى مطالب التنافس و المردودية ، جعلت المؤسسات تسعى إلى إنشاء ورشات تكوين خاصة بها حتى تمكن الموظفين الجدد من الانسجام مع طموح المؤسسة في تحسين المردودية.

و من ثمة ، نشأت " مرجعية الكفاءات " أي تحديد بنك الكفاءات الذي ينتهل منه الموظفون لإنجاز مهامهم بصورة مرضية.

و مما لاشك فيه، أن إنشاء مصالح التكوين على مستوى الشركات يكلف هذه الأخيرة مبالغ مالية ضخمة الأمر الذي جعل هذه الشركات تقدم على تحسيس المشرفين على قطاع التعليم بضرورة بناء المناهج التربوية على أساس بيداغوجية الكفاءات. و قد أبدت بعض الشركات استعدادها لمساعدة النظام التربوي في بناء البرامج التعليمية في هذا الاتجاه.

و من هنا ، بدأت ضغوط الشركات الأوروبية على سلطات الاتحاد الأوروبي للتعجيل بتشجيع مشروع بيداغوجية الكفاءات في بناء المناهج التربوية. فكان لهذا الاتحاد أن انطلق في تخصيص مبالغ طائلة لتنفيذ المشروع؛ هذا المشروع الذي يهدف إلى تحديد " مرجعية الكفاءات" بالنسبة إلى كل مجموعة من الحرف.

و الجد ير بالذكر أن صدى هذا المشروع ، كانت له ردود فعل إيجابية لدى المتعلمين و الشركات معا.

3) أسباب ظهور بيداغوجية الكفاءات في العالم الغربي :

ظهرت لفظة " الكفاءة "– من حيث هي مصطلح تعليمي– أول مرة في الولايات المتحدة الأمريكية في المجال العسكري ثم انتقلت إلى مجال التكوين المهني الذي حقق بفضلها نجاحا كبيرا. فأغرى ذلك النجاح مسؤولي النظام التربوي الشامل ، فحذوا حذو التكوين المهني فى تبني فكرة بيداغوجية الكفاءات، آملين بذلك تحقيق نجاح مماثل في القطاع التربوي.

و يمكن اعتبار بداية الستينيات (1960) مرحلة حاسمة لدخول بيداغوجية الكفاءات إلى النظام التربوي الأمريكي ، و ذلك بغرض تصحيح مردود التلاميذ التربوي.

و بدءًا من سنة 1980 م ، اتجه هذا المبدأ البيداغوجي في الولايات المتحدة – دائما – نحو تنمية الكفاءات التقنية و الإنسانية ، و ذلك بعدما اشتدت الحاجة إلى إضفاء الطابع الإنساني على التكوين .

و العمل على تعديل النمط من التكوين الذي طغى عليه كثيرا الجانب التقني.

وأما في الكيبيك (Québec) ، فقد أدخلت بيداغوجية الكفاءات على التكوين المهني الثانوي، من أجل تيسير مناهج التكوين التقني في هذه المرحلة من التعليم. و في مرحلة التعليم الابتدائي و الثانوي العام في هذا البلد نفسه . وقد كان الغرض من اللجوء إلى هذه المقاربة البيداغوجية هو الرغبة في السعي إلى تنمية المهـــارات و القـــدرات المعقدة ، و تطبيق مبـــادىء العلوم المعرفية لتتـــوافق مع العـــولمة (la Mondialisation) و لبعث جو الانسجام بين أطوار التعليم . و قد حصل هذا بدءًا من 1999 م.

و في فرنسا ، يمكن اعتبار سنة 1979 م بداية لظهور بيداغوجية الكفاءات بشكل بياني واضح ، و ذلك بعدما فشلت بيداغوجية الأهداف في تحقيق طموح المدرسة الفرنسية التّواقة إلى جعل المتعلم يعيش واقعه و يتفاعل مع محيطه بصورة مرضية انطلاقا من العمليات التعلمية التي يتلقاها في المؤسسة التربوية.

و أما بلجيكا ، فقد عرفت بيداغوجية الكفاءات سنة 1993 م في مرحلة التعليم الابتدائي أولا. و كانت تهدف هذه المقاربة إلى إدماج التعلمات L' Intégration des Apprentissages كمسعى جديد في الفعل التعليمي – التعلمي.

4) النزعة البنائية : خلفية علمية لبيداغوجية الكفاءات :

نشأت النزعة البنائية كرد فعل للحركة السلوكية التي كانت تحصر التعلم في مبدإ : مثير–استجابة .

ومن الرواد الأوائل الذين عملوا على تطوير البنائية ، مجموع من الباحثين التربويين نذكر منهم :

(Piaget) بياجي (1947) ،وفيقوفسكي(Vigotsky) (1984)، و بيرونير (1966).

ومما يجدر ذكره ، أن البنائية تهتم بالدرجة الأولى بالدور النشيط الذي يؤديه المتعلم في العملية التعليمية– التعلمية و تجعل منه محور الفعل التعلمي. و إن البنائية تعتبر بأن المعلومات الجديدة تكتسب تدريجيا عن طريق ربطها بالمعلومات الداخلية.

و من الأسس التي ترتكز عليها البنائية نذكر :

* تشجيع الاستقلالية و المبادرة لدى المتعلم.
* تقديم أنشطة ذات دلالة بالنسبة إلى المتعلم.
* تشرح أهداف النشاط و المفاهيم المرتبطة به.
* ترجع بالتلميذ إلى مختلف المصادر لتسمح له بإثراء بناء واقعه و فهمه بشكل جلي.
* تثير التساؤلات لدى التلاميذ.
* تطلب من التلميذ أن يقيم علاقات بين تعلماته.
* تأخذ بيد التلميذ وتجعله يسهم في بناء تعلماته.
* تطلب من التلميذ أن يفكر فيما تعلمه و في استراتيجيات التعلم.
* تطلب من التلميذ أن يسهم في تنظيم أنشطة التعلم.
* تقحم التلميذ في الفعل التعلمي لتجعله يبني معلوماته ومعارفه السلوكية ومعارفه الفعلية.

و على العموم ، إن النزعة البنائية (Constructivisme) تنطلق من مبدإ مفاده أن المعلم لا يقدم معارف جاهزة إلى المتعلم ؛ و لكن يقدم له–فقط– توجيهات سديدة ، حيث يقوم المتعلم بدوره إلى تحويلها إلى معلومات ، إلى معارف فعلية.

و لهذا ، فإن الكفاءة تحدد بكونها معرفة مهارية و أنها تكتسب في سياق الإنجاز.

في ظل النزعة البنائية ، المتعلم يمثل محور العملية التعليمية– التعلمية، غير أن هذا لا يعني تغييب دور المعلم ؛ حيث إن المعلم يؤدي دورا في اكتساب المتعلم للمعلومات وفي تنظيم أنشطة التعلم و إذكائها و تقويمها ، الأمر الذي يؤدي إلى إدماج المعارف و المعارف السلوكية و المعارف الفعلية.

و الخلاصة ، يكون المعلم في وضعية قيادة التلميذ إلى إدماج مركبات الكفاءة ، بأن يطلب منه إنجاز أعمال مندمجة و أنشطة تعلمية.

5) د واعي الاتجاه إلى بيداغوجية الكفاءات :

إن العالم يعيش ، اليوم ، مرحلة الانفجار المعرفي ؛ الأمر الذي جعل خبراء التربية يفكرون في إعادة بناء الفعل التعليمي–التعلمي على مبادئ مبنية على ما هو أنفع و أفيد بالنسبة إلى المتعلم و أكثر اقتصادا لوقته.

و من ثمة ، فقد ظهرت مقاربة بناء المناهج بالكفاءات كرد فعل للمناهج التعليمية المثقلة بمعارف غير ضرورية للحياة و لا تسمح لحاملها أن يتدبر أمره في الحياة العملية .

وباختصار، يمكن تحديد خصائص بيداغوجية الكفاءات فيما يأتي :

* النظر إلى الحياة من منظور عملي.
* التخفيف من محتويات المواد الدراسية.
* تفعيل المحتويات و المواد التعليمية في المدرسة و في الحياة.
*السعي إلى تثمين المعارف المدرسية و جعلها صالحة للاستعمال في مختلف مواقف الحياة.
*جعل المتعلمين يتعلمون بأنفسهم، عن طريق حسن التوجيه إلى اكتشاف أحكام المادة التعليمية.
* الطموح إلى تحويل المعرفة النظرية إلى معرفة نفعية.

و ما يجدر ذكره أن التكوين المتمحور حول الكفاءة طموح ، لأنه يستدعي القدرة على استعمال المعارف المكتسبة بفاعلية. فمن وجهة نظرالجانب التعليمي، يشكل اكتساب الكفاءات تحديا أكبر من اكتساب المعارف.

مع العلم أن الكفاءة ذات مستوى أعلى من المهارات و المعارف ؛ هذه المهارات و المعارف،التي تشكل روافد بناء الكفاءة.

و إن الكفاءة تؤدى في إطار وضعية اندماجية ذات دلالة؛ و إن هذه الوضعية الاندماجية تسمح للتلميذ أن يبرهن بأنه قادر على تسخير مختلف مكتسبا ته بصورة فّعالة وإجرائية ، و من ثمة تعطي للعملية التعلمية معنى خاصا.

6) إسهامات بيداغوجية الكفاءات في عملية التعلم :

يمكن القول بأن إسهامات بيداغوجية الكفاءات في ترقية العملية التعلمية تتحدد أساسا في ثلاثة مستويات هي :

1- إعطاء دلالة للتعلمات : و ذلك بتحديد أبعادها عن طريق جعل المعارف النظرية روافد مادية تساعد المتعلم بفاعلية في حياته المدرسية والعائلية أوفي حياته المقبلة عندما يبلغ سن الرشد، حيث يدخل الحياة سواء بوصفه عاملا أو مواطنا.

مثال:التلميذ يتعلم الكتابة و يزداد اهتمامه بتعلمها إن وضع فعل الكتابة في السياق الدلالي له ككتابة رسالة على سبيل المثال.

2- جعل أشكال التعلم أكثر فاعلية بتثمين المعارف المدرسية و جعلها صالحة للاستعمال في مختلف مواقف الحياة. فتكون المكتسبات أكثر ارتباطا فيما بينها، وأكثر وضوحا ؛ و يكون الاهتمام منصبا على الأهم دون المهم. و لعل هذا ما جعل أحد المربين يطلق على بيداغوجية الكفاءات تسمية " بيداغوجية الأهم وترك المهم ".

3- بناء التعلمات الداخلية : إن جعل مختلف مكتسبات التلاميذ في وضعية تناسق تدريجي وتوظيف متصل و في وضعيات ذات دلالة ؛ فكل هذا يجعل هذه المكتسبات تجاوز إطار القسم البيداغوجي أو العام الدراسي. حيث يبنى داخليا لدى المتعلم نظام أكثر شمولية و ثراء. فمن سنة إلى أخرى ، و من طور إلى آخر؛ يعاد استغلال المكتسبات المتراكمة تدريجيا و توضع هذه المكتسبات في خدمة كفاءات أكثر تعقيدا .

و بهذا، تسهم بيداغوجية الكفاءات في بناء التعلمات الداخلية و تأسيسها. و بالتالي في صنع المتعلم الكفء .